١٣- فصل

خلافة أمير المؤمنين المعتضد بالله أحمد[١]

[١٥٠] كان يسمى السفاح الثانى ، لأنه جدد ملك بنى العباس بعد أن أخلقته الأتراك وأذلته . وفى ذلك يقول على بن العباس الرومى[٢] :

كما بأبى العباس أنشئ ملككم كذا بأبى العباس أيضا يجدد

[١٥١] **ولقد اتفق فى أيامه على ما حكى** : أمر فظيع كشفه الله له بهيبته فى نفوس الناس فإنه كان لا يتجرأ أحد منهم أن يكتم ما فى نفسه مخافة صولته ، لأنه كان لشدة حذقه يتخيل لهم أنه يعلم ما فى نفس الإنسان من الضمير ، فاتفق أن أحد وزرائه وأكبر قواده بنى بناء عاليا مشرفا على منازل جيرانه ، فلم يعارضه أحد فيه من جيرانه لمكانته من سلطانه وعزه وكان يجلس كثيرا فى ذلك البناء ، فرأى يوما من الأيام فى دار من دور جيرانه جارية بارعة الجمال فولع بها فسأل عنها فأخبر أنها بنت أحد التجار فأرسل إلى والدها خاطبا . فقال له أبوها :-وكان من أهل اليسار- لست أزوجها إلا من تاجر مثلى ، فإنه إن تزوجها من هو مثلى لم يظلمها وإن ظلمها قدرت على النصفة منه وأنت إن ظلمتها لم أقدر لها

---

(١) أحمد المعتضد بالله بن الموفق ، أبو العباس : بويع له بالخلافة يوم وفاة عمه المعتمد، فاستقل بالأمر . وكان شجاعا ، عادلا ، ذا هيبة ، وذكاء مفرط ، ت[٢٨٩هـ=٩٠٢م] .

(٢) على بن العباس الرومى : شاعر بغداد ، من أعظم شعراء الدولة العباسية ، ت[٢٨٣هـ].

على النصفة منك ، ولا على الحيلة لنصرتها . فلم يزل يرومه فى ذلك بكل أمر ، وتوسط إليه بالأكابر والأماثل من الناس وهو مع ذلك يمتنع .

فلما يئس منه أن يجيبه شكا إلى أحد خواصه ، فقال له : ألف مثقال يقوم لك هذا ، فقال : كيف ذلك ؟ والله لو علمت أنى أنفق عليها مائتى ألف مثقال أو أكثر وتأتينى لفعلت . قال له : عليك أن تحضر لى ألف دينار ، فأمر بإحضارها فمشى بها ذلك الرجل إلى عشرة رجال كانوا عدولا عند القاضى فى شهادتهم وذكر لهم الأمر، وقال : هذا أمر ليس عليكم من الله فيه تبعة فإنه يصدقها كذا وكذا ألفا وأغلى لهم المهر ، وإنكم تحيون نفسا أشرفت على الهلاك ويكون لكم عنده مع هذا من الجاه ما ترغبون وأبوها إنما هو عاضل لها فى الزواج ، وإلا فما يمنعه من ذلك وقد خطبها مثل فلان فى جلالة قدره ومكانة أمره وقد أعطاه صداقا لا يعطى إلا لبنت ملك ، ثم هو مع هذا يأبى هل هذا إلا عضل بَيِّنٌ !

ولكن لكم ألف مثقال لكل واحد منكم مائة وتشهدون أنه قد زوجها منه ، فإنه إذا علم أبوها بأنكم قد شهدتم عليه رجع إلى هذا إذ ليس فيه إلا الخير والخيرة ، فأخذ الشهود كل واحد منهم مائة وشهدوا أن أباها زوّجها على صداق مبلغه كذا ورفعوا فى الصداق إلى غاية ما ترفع إليه صداقات الملوك . فلما علم أبوها بذلك زاد نفارا وإباء ، فمشى الوزير وذلك القائد إلى القاضى وقال : إنى تزوجت فلانة بنت فلان على هذا الصداق وهؤلاء شهدوا عليه ، ثم قد ناكرنى وأنكر الشهود ، وقد أردت أن أدفع له حق بنته وآخذها ، فأمر القاضى بإحضار الشهود فشهدوا عنده وأحضر مال النقدين بين يدى القاضى والرجل على إنكاره متماد ، فأمر

القاضى بإمضاء الحكم عليه وأن تؤخذ ابنته منه أحب أو كره ، وأمر بحمل المال إليه .

فلما وصلت الجارية عند الوزير لم يزل أبوها يروم الوصول إلى المعتصم وكان المعتصم غليظ الحجاب لا يصل إليه أحد من غير الخاصة ، فقيل للرجل : إنه يحضر كل يوم ساعة من النهار على بنيان له بقصره فإن استطعت أن تكون مع جملة رجال الخدمة تصل إليه وتكلمه بما أردت ؛ ففعل الرجل ذلك وغير شكله ودخل فى جملة رجال الخدمة للبناء . فلما كان ذلك الوقت الذى كانت عادة أمير المؤمنين المعتضد يقف فيه على ذلك البناء خرج ذلك الرجل فترامى على الأرض وجعل يحثوا التراب على رأسه ويستغيث ، فسأله عن شأنه فقص عليه القصة فأرسل المعتضد فى ذلك المقام خلف ذلك القائد وأغلظ عليه فى القول فحملته هيبته له وقلة إقدامه على الكذب عليه أن وصف له الصورة على ما كانت عليه وهو يطمع أن يعذره فى ذلك إذ قد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها وأمر بإحضار الشهود فصنعوا مثل صنيع صاحبهم - وذلك كله رهبة له وإجلالا أن يخاطبوه بكذب مع تخيلهم أنه يصفح لهم عن هذه الزلة ، إذ قد أرادوا إحياء نفس ذلك الوزير ، وأيضا قد دفع له بين يدى القاضى نقدا لا يكون إلا فى صداقات الملوك ، وقد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها ؛ فكأنما قد أخذها بحقها وبأكثر من حقها .

فلما تحققت عنده جلية الخبر ؛ أمر أن يصلب كل من شاهد منهم على باب داره وأن يوضع ذلك الوزير فى جلد ثور طرى السلخ ويضرب بالمرازب ، حتى يختلط عظمه ولحمه بدمه ، ثم أمر به لما صنع به ذلك

أن يفرغ بين يدى نمور كانت عنده . فلما لعقت تلك النمور ذلك الدم ، أمر الرجل أبا البنت أن يأخذ ابنته ، ويأخذ كل ما ذكروا لها على ذلك الوزير فى صداقها من عقار ودور ومال ، ثم مات المعتضد وولى ابنه المقتدر ، وكان صبيا صغير السن فعادت الأتراك إلى ما كانت عليه من ذلك ، والله تعالى أعلم .

[١٥٢] ويقرب من شهامة هذا الملك، ما ذكره فى حياة الحيوان فى ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن[١] صاحب بلاد المغرب من أنه وقع بينه وبين الأذفونش نصرانى طليطلة مكاتبات قال : بعث الأذفونش إلى الأمير يعقوب يتوعده ويتهدده ويطلب منه بعض حصون وكتب له رسالة من إنشاء وزيره ابن النحار وهى: "باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الفصيح ؛ أما بعد فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والنكول والتكاسل واهمالهم أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة والأمنية ، وأنا أسوسهم بحكم القهر وإخلاء الديار وسبى الذرارى[٢] ، وأمثل بالرجال وأذيقهم عذاب الهوان وشديد النكال ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم ، إذا أمكنتك القدرة وساعدك من عساكرك وجنودك كل ذى رأى وخبرة وأنتم تزعمون أن الله تعالى قد فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن

---

(١) يعقوب بن عبد المؤمن : ثالث خلفاء الدولة المؤمنية الموحدية بالمغرب والأندلس . له فتحات عظيمة فى الأندلس ت[٥٩٥هـ-١١٩٩م] .

(٢) الذَرَارى : الأطفال و النساء .

فيكم ضعفا رحمة منه ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا ، ولقد حكى عنك أنك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا ندرى أكان لجبن إبطاؤك أم لتكذيب بما وعد ربك ، ثم قيل لى : إنك لا تجد إلى الحوار سبيلا ولعله لا يسوغ لك التقحم فيه ميلا وها أنا أقول لك ما فيه الراحة وأعتذر عنك ولك أن تفى بالعهود والمواثيق والاستكثار من البرهان وإلا جئت بجملتى إليك : وأقاتلك فى أعز الأماكن عليك ، فإن كانت النصرة لك كانت غنيمة كثيرة جاءت إليك وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك ، والله الموفق لا رب غيره ولا خير إلا خيره" .

قال : فمزق يعقوب الكتاب وكتب على قطعة منه : ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع واستشهد ببيت المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسله إلا الخميس العرمرم[1]

ثم أمر بكتائب الاستنفار ، واستدعاء الجيوش من الأمصار ، وضرب السرادقات من يومه بظاهر البلد وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبته[2] ، فعبر فيه إلى الأندلس ودخل إلى بلاد الإفرنج ، فكسرهم كسرة شنيعة وعاد بغنائمهم ، والله أعلم.

---

(١) المشرَفيَّة : كناية عن السيوف التى تصنع فى المشرفية ، والمشرفية مكان فى اليمن . الخميس العرمرم : الجيش الكثير ، الشديد البأس .

(٢) زقاق سبته : اسم مضيق جبل طارق قديماً فى المغرب ، يطل على البحر المتوسط.